المحاضرة السادسة

الاوضاع الخارجية في عهد المنصور

العلاقة مع البيزنطيين

اتسمت الحروب بين المسلمين والبيزنطيين في عهد المنصور بالمهادنة اذ لم تتعد المناوشات الحدودية المحدودة وذلك يعود الى اهتمام العباسيين بتدعيم مركزهم الداخلي . بالمقابل كان اهتمام الامبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس منصبا على التجهيز لحرب البلغار في البلقان من جهة ومشكلة عبادة الايقونات من جهة اخرى .

حيال هذا الواقع كان الخليفة العباسي يتطلع الى اعادة بناء ماتهدم من حصون وثغور مستغلا الهدوء النسبي المتوقع.

والواضح ان المنصور اتبع تجاه الدولة البيزنطية السياسة التي تتفق مع الوضع الهجومي الذي نفذه الامبراطور البيزنطي وهي محاولة ايقاف الهجوم عن طريق اعادة تحصين الثغور وترميم المخربة منها واعادة بناء المهدمة ثم تنظيم وسائل الدفاع عنها . والجدير بالذكر ان مناطق الثغور كانت تنقسم قسمين :

الاولى : منطقة الثغور الجزرية وهي التي خصصت للدفاع عن الجزيرة اي شمالي العراق ومن اهم حصونها ملطية ، المصيصة و مرعش .

الثانية : منطقة الثغور الشامية وتقع غربي الثغور الجزرية وقد خصصت للدفاع عن بلاد الشام ومن اهم حصونها طرسوس و أذنة وعين زربة .

لقد حصن المنصور هذه المناطق وخصصها بحكم اداري مستقل وحشد فيها الاف المقاتلين والمرابطين ومنحهم الاقطاعات والمزارع وبنى لهم البيوت والاصطبلات وانفق عليهم الاموال ووضع لهم نظاما عسكريا ينفذونه .

هذا وقت امتازت منطقة الثغور الشامية بان الحملات التي كانت تخرج منها برية وبحرية في آن واحد . وقد ادت اساطيل مصر والشام دورا مشتركا هاما انطلاقا من هذه المنطقة .

وبهذا النظام الثغري استطاع المنصور ان يضع حدا لمطامع البيزنطيين .

وشهدت مناطق الحدود في عهده مناوشات تراوحت بين الكر والفر من كلا الجانبين كانت تخف حينا وتنشط احيانا متأثرة بالاوضاع الداخلية لكليهما.

ففي عام (133 هـ / 750 م) تعرضت ملطية لهجوم بيزنطي عنيف بقيادة الامبراطور الذي تمكن من دخولها فقهر اهلها وهدم سورها . ولما كانت هذه المدينة ذات اهمية استراتيجية فقد استعادها الخليفة و رممها وشحنها بالمقاتلة كما رمم قلوذية وشحنها بالمرابطين وبنى المصيصة ورمم مرعش .

ونفذ البيزنطيون عدة غارات على مناطق الحدود في اوقات متقاربة او متباعدة ورد المسلمون بارسال الصوائف التي استمرت طيلة عهد المنصور واصدمت اخر صائفة في عام (158 هـ / 775 م) بقيادة معيوف بن يحيى بجيش بيزنطي في المنطقة الواقعة بين الحدث ونهر جيجان .

بناء مدينة بغداد

كان من بين اهم الاعمال التي قام الخليفة ابو جعفر المنصور وتركت اثرها في مستقبل الخلافة العباسية بناؤه مدينة بغداد . والواقع ان تاريخ هذه المدينة باعتبارها قاعدة من القواعد الاسلامية يسير جنبا الى جنب مع قيام دولة الخلافة العباسية وسقوطها . وقد ظل العباسيون قبل ذلك ثلاثة عشر عاما منذ وصولهم الى الحكم دون عاصمة حتى بنوا بغداد .

لقد ادرك المنصور المخاطر التي احاطت بدولته الناشئة والتي نهدف الى تفويض حكم الاسرة العباسية لذا عمد الى البحث عن مكان يكون ملائما لعاصمة جديدة تكون تعبيرا عن سيادة اسرته فاختار موضعا عند التقاء نهر الصراة بنهر دجلة حيث توجد بغداد البوابة التاريخية التي تؤدي الى مدن الشرق .

هذا وكانت لدى المنصور من الدوافع السياسية والعسكرية والاقتصادية والمناخية مما جعله يقدم على بنائها .

فمن حيث الدوافع السياسية فقد تعذر على العباسيين اتخاذ دمشق عاصمة لهم نظرا لما تكنه من اخلاص لبني امية . فقد كانت هذه المدينة عربية في طابعها وبيئتها وبعيدة عن بلاد فارس مصدر قوة العباسيين فكانت لهم مصلحة خاصة في نقل حاضرتهم ناحية الشرق . كذلك لم يستقر العباسيون في الكوفة او البصرة وهما المدينتان الكبيرتان اللتان كانتا موجودتين منذ الفتح الاسلامي للعراق . وبديهي ان هذا لم يات عفويا فقد كان اهل الكوفة ميالين الى الثورات وغلب عليهم التشيع للامام علي ابن ابي طالب وابنائه (عليهم السلام) . اما البصرة فكانت لا تصلح حاضرة للدولة بفعل موقعها القاصي في الجنوب .

اما بغداد فكانت مؤسسة جديدة خالصة للعباسيين وتقع على مقربة من بلاد فارس وجاء بنائها متوافقا مع رغبة العباسيين في الاحتفاظ بالسلطة والتخلص من العلويين والانتقال الى مرحلة الحكم العباسي الصرف واعتماد سياسة تهدف الى اقامة تحالفات جديدة في مجتمع فئات عنصرية قومية ذات ثقافات مختلفة ، في وقت كان فيه المجتمع الاسلامي يمر في مرحلة التحول من التنظيم القبلي الى التنظيم السكني باتجاه قيام مجتمع متماسك تتوفر فيه شروط الاستقرار السياسي والاجتماعي .

اما من حيث الدوافع العسكرية فقد كان مركز دمشق النائي نحو الغرب لا يلائم دولة تمتد من البحر الابيض المتوسط الى نهر السند . ولم يكن من الجائز ان يقيم العباسيون عاصمة لدولتهم وراء جبال فارس اذ انها ستكون بعيدة عن سائر الامصار . يضاف الى ذلك ان اقليم العراق كان حلقة الاتصال بين الشرق والغرب فأصبح بذلك واسطة العقد بين العنصرين الرئيسيين اللذين تألفت منهما الجماعة الاسلامية .

ويمتاز موقع بغداد بحصانته من الناحية العسكرية اذ لا يمكن الوصول اليه الا على قنطرة او جسر فاذا قطعت الجسور و خربت القناطر لا يصل اليه العدو . وشكل نهر دجلة و الفرات سورا وخندقا طبيعيين كما يمتاز هذا الموقع ببعده عن مناطق الحدود البيزنطية مما يجعله امنا وبعيدا عن غارات البيزنطيين .

هذا وقد تطورت الوظيفة العسكرية للمدن الاسلامية من حيث كونها معسكرا تنطلق منه الحملات العسكرية للتوسع خاصة وان المسلمين اقاموا في بداية الفتوحات في معسكرات خارج المدن الى معسكر للجند بعد تمصيره بحيث يكون الدفاع عنه اسهل من الدفاع عن المعسكر المكشوف .

وتبدو المظاهر العسكرية جلية في اسلوب بناء مدينة بغداد وطريقة تحصينها . فقد احيطت بسورين وخنادق يحيط بها خندق خارجي عرضه ستة امتار تجري فيه المياه بهدف احاطة المدينة بالمياه من كافة جوانبها حتى تكون جزيرة . وجهزت ابواب المدينة الاربعة بدهاليز كبار تنحرف عن الابواب الخارجية . وبهذا الطراز الهندسي اكتسبت المدينة قدرة دفاعية . فحين يحاول الاعداء الدخول اليها يضطرون الى الانحراف نحو اليسار للدخول من مدخل ثان مما يجعل جوانبهم اليمنى مكشوفة وعرضه للسهام الموجهة اليهم . يضاف الى ذلك ان امكانات الوظيفة العسكرية تتأثر بحجم المدينة ويقتضي بالتالي اقامة توازن بين مساحة المدينة وعدد المدافعين عنها وهذا يفسر بناء بغداد على شكل دائري اذ تقل مساحة هذا الشكل عن مساحة الشكل المربع في الارض الواحدة ، كما يجعل وجود مركز في المدينة على مسافات متساوية من اجزاء الدائرة وكان ذلك تعبيرا عن حرص المنصور على المساواة بين موظفيه كما يعرض كل اجزائها للشمس والهواء .

ومن حيث الدوافع الاقتصادية فان العباسيين لم يستقروا في مكة او في المدينة لان الحجاز كان قطرا فقيرا لا يتناسب مع مكانة الدولة الاسلامية المترامية الاطراف و الآخذة في التوسع والازدهار .

ويمتاز موقع بغداد في وادي الرافدين على الضفة الغربية لنهر دجلة في اعلى المكان الذي يلتقي فيه هذا النهر بنهر الصراة بأنه صلة الوصل بين بلاد الشام وبلاد فارس كما يمتاز بأهميته الاقتصادية كمركز تجاري لوقوعه على الطرق والممرات المائية والبرية والبحرية المتصلة ببقية انحاء الدولة حيث ترد اليه المؤن من الشام والجزيرة ومصر والهند والسند والبصرة و واسط و ارمينيا و اذربيجان عن طريق دجلة والفرات وفروعهما وتتوافر فيه سبل المعيشة وطيب الهواء وجودة الغذاء كما كانت المنطقة مزدهرة زراعيا ومرتبطة بأقنية للري منظمة تنظيما دقيقا .

ومن حيث الدوافع المناخية فقد بعث المنصور روادا يختارون له مكانا مناسبا يبني فيه حاضرته فوقع اختيارهم على مكان قريب من بارما جنوبي الموصل . فخرج اليه في جماعة من رجاله وبات فيه ليلته . ولما اصبح سأل رجاله عن رأيهم فيه فذكروا له طيب هوائه وجودة غذائه . لكن الخليفة لاحظ انه يفتقر الى مرفق للرعية وذكر لهم موضع اخر كان قد مر فيه وهو في طريقه الى هذا المكان فرجع مع رجاله واقاموا فيه يوما وليلة وكان الفصل صيفا فأعجبه هواؤه ووجد فيه المكان الذي بفي باغراضه . واحب المنصور ان يقف على اراء اهل تلك الناحية فدعاهم وسألهم عنه وكيف هو في الحر والبرد والامطار وغيرها فاخبره كل واحد بما عنده من العلم كما سأل احد الدهاقين وكان صاحب مزرعة فيه فحسن له النزول فيه لوقوعه بين اربعة نواح و ورود المؤن اليه من الاقاليم المجاورة كما علم المنصور من رهبان الاديرة الموجودة فيه ان الوقع معتدل الحرارة بشكل عام .

ويتميز موقع بغداد بمميزات مناخية منها قله الرطوبة رغم الجفاف والحرارة المرتفعة وهو ما يجعل مناخها افضل من مناخ المدن الساحلية في المنطقة حيث رجة الحرارة معتدلة الا انها مشبعة بالرطوبة .

كان في موضع بغداد قبل الاسلام قصر ساساني وجسر من البواخر على دجلة وقرى نصرانية صغيرة متناثرة على الضفة الغربية للنهر حولها اديرة للنصارى النسطوريين . والراجح انه كانت هناك محلة تقام فيها اسواق موسمية يجتمع فيها التجار . وقد وجدت نقوش اشورية تفيد ذلك كما وجدت قطع من الآجر نقش عليها اسم بختنصر الثاني .

ويروي المصنفون ان المنصور لم يشيد مدينته في منطقة خالية من السكان بل ان بغداد قامت في منطقة عامرة بالقرى وذكروا بيانا بأسماء قرى نصرانية اصلها ساساني اخذت تندمج تدريجيا في الاماكن التي شملتها العاصمة العباسية وكانت بغداد اهم هذه القرى . والراجح انها كانت تشمل الدينة المدورة التي بناها المنصور واضحت فيما بعد نواة الحاضرة العباسية الجديدة بل ان بغداد اخذت اسمها الشائع منها .

ان اسم بغداد مشتق على الارجح من صيغة فارسية مركبة من كلمتين هما (باغ) و(داد) وتعني عطية الله . وذكر المؤرخون والجغرافيون العرب عدة اشتقاقات لهذا الاسم وسماها المنصور مدينة السلام تيمنا بجنة الخلد او لان وادي دجلة كان يقال له وادي السلام ، وكان هذا هو الاسم الرسمي الذي يذكر في الوثائق وعلى المسكوكات والأوزان .

شرع المنصور في بناء عاصمته في عام (145 هـ / 762 م) واستخدم الوفا كثيرة من العمال بالاضافة الى الاختصاصيين من صناع ونجارين وحدادين وحفارين استقدمهم من الامصار واشرف على البناء عدد من المهندسين الذين عملوا في بناء المدينة وقد استغرق بنائها اربعة اعوام تقريبا انتهى عام (149 هـ/ 766 م) .

ويعتبر المخطط الذي نفذه المنصور مبتكرا فقد جعل المدينة مستديرة تحيط بها اسوار مزدوجة تؤلف حلقتين متتابعتين وهذا اتجاه جديد في فن بناء المدن الاسلامية ويبدو انه تأثر ببناء بعض المدن الفارسية القديمة مثل همذان.

شيدت مدينة بغداد على شكل حصن كبير وتألفت من ثلاثة عناصر معمارية هي :

التحصينات ، الاسوار الخارجية ، ثم المنطقة السكنية الداخلية . وضم وسط المدينة قصر الخليفة والجامع وقصور اولاده و دواوين الحكومة . ولم يكن يسمح لاحد بركوب الخيل او غيرها من الدواب داخل المدينة الداخلية الا للخليفة ، وان من يريد القصر عليه الترجل عند مداخل المدينة الداخلية ويسير على الاقدام باستثناء المهدي و داوود بن علي عم المنصور الذي سمح له بأن يحمل في محفة نظرا لمرضه .

ولما فرغ المنصور من بناء مدينة بغداد اقطع اهل بيته واعيان دولته قطائع من الارض بجوار الابواب خارج مدينته ومنح جنوده الارباض ليبنوا عليها دورهم ، وذلك رغبة في تخفيف الضغط عن المدينة من جهة ومكافأة لهم على ما قدموه من الخدمات الجليلة من جهة اخرى . وسرعان ما عمرت القطائع و ازدحمت بالسكان واضحت كل قطيعة تعرف باسم الرجل او الطائفة التي تسكنها .

ويظهر الاثر الفارسي في تخطيط المدينة اذ فصل الخليفة عن الرعية وجعل له مقام سام يصعب الوصول اليه كما ان فخامة القصر والايوان تظهر روعة الملك ثم ان فكرة الاستدارة وحصر بيوت السكان في احياء منفصلة يمكن غلقها ليلا وحراستها بصورة دقيقة يشير الى السلطة المطلقة المتأثرة بالفرس والتي تتعارض مع سماحة الاسلام وما عرف عن الامويين .

وبنى المنصور في عام (151 هـ / 768 م) مدينة الرصافة او بغداد الشرقية لابنه المهدي على الجانب الشرقي من دجلة مقابل مدينة بغداد الغربية وقد عرفت بأسم (عسكر المهدي) . وتعود الاسباب الاستراتيجية لتبرز من جديد في بنائها حيث وضع المهدي جنده فيها ليكون من في خارج مدينة المنصور عونا في قمع الاضطرابات التي قد تنشب داخلها . ويبدو ان الخليفة ادرك انه لن يكون امنا كل الامان على نفسه بإقامته في بغداد . وجهزت الرصافة بسور وميدان وبستان واجري عليها الماء و ربط بين المدينتين بثلاثة جسور على نهر دجلة ونمح القواد فيها القطائع . وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت في الاتساع وانتهى بناء الرصافة في عام (159 هـ / 776 م) في عهد الخليفة المهدي .

ولاية العهد ـ وفاة المنصور

من الاحداث المؤثرة التي وقعت في عهد المنصور خلعه لابن اخيه عيسى بن موسى من ولاية العهد ، واخذه البيعة لابنه المهدي بالرغم من ان هذا الاول كان قد انقذ له ملكه اكثر من مرة . ويبدو ان الخليفة فكر في خلع ابن اخيه في بداية عهده . فيذكر الطبري انه قد اوفد عيسى بن موسى لمحاربة العلويين وفي نيته ان يتخلص اما من ولي عهده ، ليحول الخلافة الى ابنه المهدي ، او من محمد النفس الزكية واخيه ابراهيم . وقال : (لا ابالي ايهما قتل صاحبه) .

لكن كبار رجال الدولة كانوا قد اقسموا في حياة السفاح على بيعة عيسى بن موسى ولم يكن من السهل عليهم نقضها ولم يكن ثمة مناص لتحللهم منها الا بحمل عيسى بن موسى على الانسحاب طوعا والتخلي عن ولاية العهد ، ويبدو انه لم يكن راغبا في ذلك مما دفع المنصور الى استعمال وسائل الترغيب والترهيب التي ادت بدورها الى اضطراره الى خلع نفسه و مبايعة المهدي في عام (147 هـ / 764 م) واضحت ولاية العهد للمهدي اولا ثم لعيسى بن موسى من بعده .

واسرع المنصور فحمل الناس على بيعة المهدي و اوصاه بوصية تكشف عن السياسة الرشيدة التي يجب عليه تطبيقها تجاه رعيته ، فحثه على الرأفة بهم والسهر على راحتهم وبسط العدل بينهم والتقرب الى الله بحسن السيرة واجلال اهل العلم والدين وعمارة الارض لتخفيف الخراج ونشر الاسلام والجهاد في سبيل اعلاء كلمته .

توفي المنصور ليلة السبت (لست مضين من ذي الحجة عام 158 هـ / شهر تشرين الاول عام 775 م) وكان يشكو من عسر الهضم ، فخرج لأداء فريضة الحج وعانى اثناء الطريق من الآلام الموجعة ولم يكد يصل الى بئر ميمون على بعد ستة ايام من مكة حتى توفي عند السحر في خيمته .